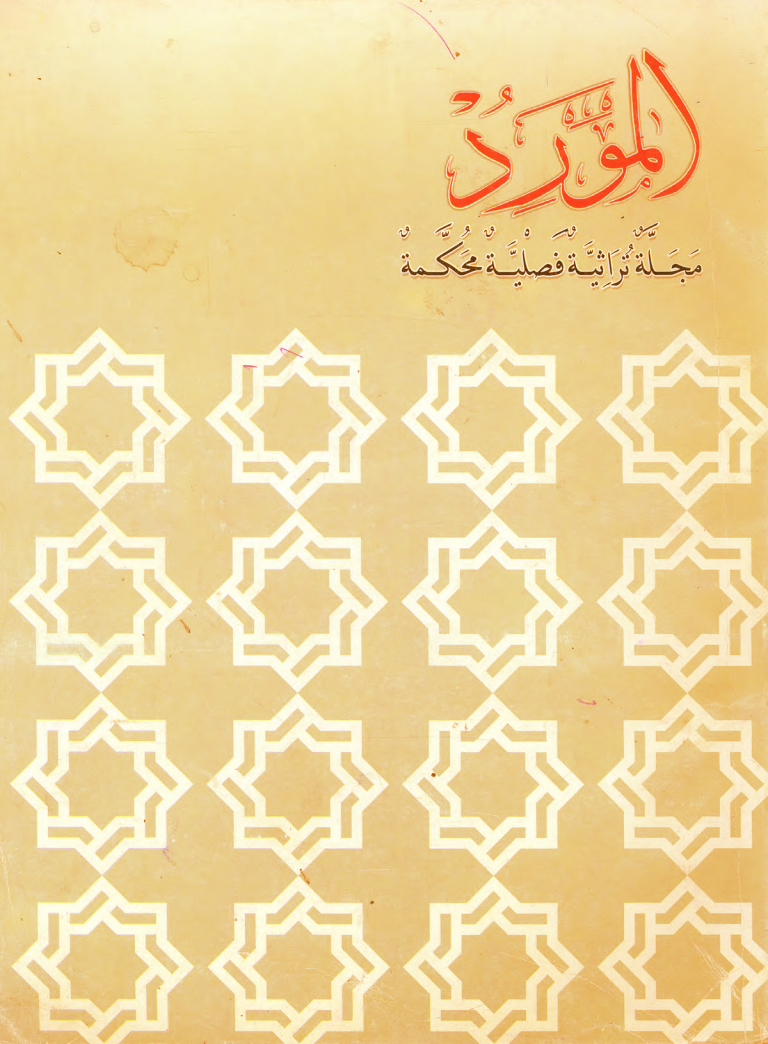
المورد
مجلة تراثية فصلية محكمة

الكرملي وقاموسه المساعد

بقلم الاستاذ

مير بصري

رئيس الطائفة الموسوية (اليهودية) ـ بغداد

لو هيء للأب انستاس ماري الكرملي أن يعود الى الحياة بعد ربع قرن ، لسره ، وأيم الحق ، أن يرى قاموسه (المساعد) الذي افنى معظم سني عمره الطويل في تحبيره والذي احبه محبة الاب لولده ، وقد صدر الجزء الاول منه في طبعة متقنة انيقة برعاية من وزارة الاعلام وعناية المحققين العالمين الاستاذين كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي . ان هذه المأثرة التي اسدتها وزارة الاعلام قد حققت، ولا ريب ، حلما من احلام العلامة الراحل الذى لم يكن ليظن أن (مساعده) الاثير سوف يخرج في يوم من الايام الى عالم النور بهذه الحلة القشيبة .

ان (المساعد) في الحقيقة قاموس القاموسيين فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذى يفيد منه القارىء والمتعلم والاديب ، بل هو ثبت للكلمات الغريبة والاصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ واساطير الامم وتتبعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للآراء والاسماء والاقوال والافعال ، واستطرادات ادبية وعلمية وفكرية وشعبية عامية ...

ولقد شبهت (مساعد) الاب الكرملي فيما مضى بقاموس اميل ليترة الفرنسي (١٨٠١–١٨٨١) الذي جد في تحقيق عروق الكلمات وتطور معانيها وسرد ما تنظر اليه في اللغات الاجنبية . والحقيقة ان منهج الكرملي في (مساعده) يختلف اختلافا واضحا عن منهج اللغوى الفرنسي : فهذا قد اهتم كثيرا في تتبع استعمال كلمات اللغة وتطور معانيها على مر الاجيال . واللغة كائن حي تنمو الفاظه وتتغير وقد تندثر وتموت وتتجدد . هاذا قرانا كتابا فرنسيا مثلا من كتب القرون الوسطى ، وحتى من تاليف القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وجدنا فيه صيغا وكلمات وامالي ومعاني تختلف اختلافا بينا عما هو مألوف في عهدنا الحاضر . وكان اهتمام ليترة منصبا على تتبع معاني الالفاظ والتغييرات الطارئة عليها من خلال كتب اللغة والادب . وكذلك فعل مؤلفو (قاموس اكسفورد الانكليزي) فقد راعوا المراحل التاريخية في نمو اللغة واشاروا الى تواريخ استعمال كل كلمة بالمعنى الذى تؤديه على قدر الامكان ، وذكروا الكلمات القديمة والمتوسطة والحديثة والنادرة والمندثرة والمحدثة . اما الاب انستاس فقلما عني بهذه الناحية الا استطرادا وفي احوال معينة ، كما فعل في مادة (الأدب) . فقال ان لفظتي (الادب) و (والأديب) ليستا من كلام العرب بل هما من الدخيل ، وان لهما معاني قديمة غير المعاني التي صارت اليها مع تتابع القرون : فمعنى الاديب في عصر الجاهلية وصدر الاسلام الطيب الحديث ، الحسن الصوت ، المؤنس ، الرفيق . ومن الاديب اشتقوا الادب ... ثم تتبع الكرملي تطور معنى الاديب منذ اقدم العهود واستشهد على ذلك بالشعر والنثر . ولم يفعل مثل ذلك في سائر الكلمات التي وردت في معجمه الا قليلا .

وفي مادة (الاستاذ) المع الكرملي الى شيوع استعمال هذه الكلمة في العصر الحاضر الى حد الابتذال ، ومع ذلك لا اثر لها في المعاجم العربية المعتمدة كالقاموس وتاج العروس ولسان العرب والجمهرة وغيرها . وليس في لساننا كلمة تقوم مقام هذا الحرف الفارسي الذى شاع في عهد العباسيين واموي الاندلس والفاطميين . وعرف ابن العميد المتوفي سنة ٩٧٠ م بالاستاذ الرئيس ، وكذلك عرف ابو نصر الحسين بن الحسن بالاستاذ الفاضل ... اما اليوم فكل من سطر حرفا او نظم بيتا او تقلد عملا نعت بالاستاذ اذا لم ينعت بالعلامة الفهامة .

فلابد اذن من الاعتراف بأن معاني الكلمات تتطور وتتحور وجوه استعمالها بمرور الازمان : مثال ذلك ان (القهوة) في اللغة العربية كانت تطلق على البن المحض والخمر ثم اتخذها المولدون علما للبن . و (القرن) يعنى حقبة من الزمن ثم اختص بمائة سنة فقيل : القرن التاسع والعاشر بمعنى المائة التاسعة والعاشرة . و (الوجدان) مصدر للوجود ثم اطلق خصيصا على الضمير والنفس . و (المقارنة) في الاصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم اخرجت الى معنى المقايسة والمفاضلة... و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحذق فصرفت الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والاخلاق ، لتنظر الى معنى كلمة (كولتور) الالمانية والفرنسية و (كلشر) الانكليزية . وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادىء الامر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر الا في اوائل القرن التاسع عشر .

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديدا على صواب او على خطأ فيشيع ويعم استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله . وليس ذلك بدعا في العربية : فقد نبه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال ان العرب لم تعرف الصمود مصدرا وانما المصدر (الصمد) كالقصد وزنا ومعنى . فاذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدو ، فكيف يستعمل للثبات والقرار وهو عكس معناه ؟

ونبه الدكتور جواد ايضا على كلمة (الاستهتار) فقال ان معناها الغرام والولوع بالشيء واخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به كأن يقال : (فلان مستهتر بالقانون). وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحب وغير المحترف كالموسيقي الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوابع وفصيحها (الهوي) بلا ألف ، اذ معنى الهاوي لغة : الساقط والجراد الخ . وكرر الدكتور تنبيهه وبح صوته في (قل ولا تقل) ، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على اخطائهم لا يرضون عنها بديلا .

قال الدكتور جواد في كتابه « المباحث اللغوية في العراق » وهي المحاضرات التي القاها في قسم الدراسات الادبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية في القاهرة سنة ١٩٥٤ : « ومشكلة التعبير بالعربية في هذا العصر مشكلة عويصة : فان كتاب العرب في القرن العشرين الميلادي واواخر القرن التاسع عشر يختلفون اختلافا غير قليل عن القدماء في التعبير بالعربية لان التعابير المترجمة من اللغات الاعجمية قد تسربت في العربية بوساطة الصحافة ، فهي التي طورت اللغة العربية ، ولان العربية قد نضاءلت بكثرة اللهجات العامية وتطاول الازمان عليها واستفحالها ... فكلما امتد الزمان بالعرب زاد كون العربية صناعة وتقليدا . ولكن الذى يبعث على السرور والابتهاج هو الاجتهاد في نشر اللغة الفصيحة ، وازالة الامية ، والتربية النسوية . فالعامة في الاقطار التي استروحت رائحة العروبة يميلون كل الميل الى تقليد الكتاب والخطباء في عباراتهم ومفرداتهم حتى ارتقت لغتهم . والتعليم النسوي لم يبلغ في عصر من عصور الاسلام ما هو عليه اليوم ، مع انه في اول النهوض ... »

ولا مندوحة اليوم عن قبول الكلمات والصيغ التي شاعت على الالسن في البلاد العربية على أن تكون مطابقة لروح اللغة وان تقرها المجامع اللغوية فتدخلها في معجماتها وتنص على معانيها الحديثة . على ان هناك اغلاطا فاشية لا سبيل الى قبولها ، كأن يقال : (كم هو جميل هذا الصباح) وهو ترجمة حرفية لصيغة التفضيل الانكليزية والفرنسية ، بينما قالت العرب منذ القديم : (ما أجمل هذا الصباح) ، وهلم جرا .

ولكن لنعد الى معجم المساعد الذي صدر الجزء الاول منه مقتصرا على حرف الهمزة ، (حتى الالف واللام) وقد وطأ له المحققان بمقدمات وافية تناولت سيرة المؤلف وآثاره ومركزه اللغوي وماكتب عنه وقاموسه المساعد ومنهج الناشرين في التحقيق. وذيل الكتاب بفهارس مفصلة يسرت مراجعته والافادة منه .

ان من اهم مزايا الكرملي اطلاعه الواسع على المراجع العربية والافرنجية على السواء ، وهي مزية قلما اجتمعت لمحقق بحاثة لغوي وتاريخي . فنراه في مساعده ـ كما في سائر تصانيفه ـ يرتفد من ينابيع الثقافات العربية القديمة واللاتينية واليونانية والفرنسية ويرجع بيسر وسهولة الى امهات الكتب والمعجمات في اللغات التي يحسنها . فحينما يعرض لكلمة (ابراكادبرا) وهي من الفاظ الطلاسم والسحريات يستقي معلوماته من كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي ومعجم لاروس والمعجم المدرسي الانكليزى . وهكذا في سائر مواد قاموسه .

وفي المساعد خلاصة كثير من التصانيف التي وضعها او نشرها الكرملي : فمن ناحية اللغة وفقهها وقياسها ومعارضتها بالالسنة الاعجمية نجد مواد وردت موسعة في كتابه (اغلاط اللغويين الاقدمين)

و (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) . ومن ناحية المفردات ونظائرها في اللغات الحية نجد المساعد يلخص كثيرا من مواضيع (النقود العربية وعلم النميات) و (نخب الذخائر في احوال الجواهر) ومقالاته العديدة في الصحف والمجلات خلال زهاء نصف قرن .

وعنى الاب العلامة بالاوابد والاساطير العربية والاعجمية ، فمن ذلك ما ذكره عن (الازدهاق) ويسميه العرب (الضحاك) ، فقال ان اهل اليمن يدعون ان الضحاك منهم وانه اول الفراعنة وكان ملك مصر لما قدمها ابراهيم الخليل . والفرس تذكر انه منهم وتنسبه اليهم ولهم فيه قصص ذكرها ابن الأثير في الكامل ، ولم يشر الى قصص الكرد عن الضحاك او زهاق الملك الطاغية الذي سام آباءهم ذلا حتى قتله كاوا الحداد . ولعل اول مصدر عربي لهذه القصة كتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) للاديب المؤرخ الرحالة ابن عربشاه المتوفي سنة ١٤٥٠م ، ولو انه رواها مبتورة ناقصة . (وتفصيل ذلك في مقال لي عن الملك الضحاك في المراجع العربية القديمة) نشرته جريدة (التآخي) في عددها المؤرخ في ٢٤ حزيران ١٩٧٠ .

وعني الكرملي في معجمه بوجه خاص بالميثولوجية اليونانية القديمة التي تزخر بالخرافات والحكايات عن الالهة والابطال . والمعلوم ان العرب ، حينما عمدوا الى الترجمة في صدر الدولة العباسية، اهتموا بكتب العلوم من طب وفلك وهندسة وفلسفة وما الى ذلك واغفلوا الشعر والادب كالالياذة والاوذيسة لما حفلت به من خرافات وثنية مغايرة لروح الاسلام . ومرت اجيال طويلة حتى اقدم سليمان البستاني على نقل الياذة هوميروس شعرا الى العربية انفق في ذلك اعواما طويلة ومهد لها بمقدمة ضافية عن الادب والاساطير الافريقية القديمة مما لم يكن معروفا مثيله في لغة الضاد . وكان العمل الذى نهض به البستاني عملا يرهق كاهل الفرد لولا نبوغ الرجل وعلمه الوافر وجلده الطويل . ومع ذلك انبرى عباس محمود العقاد ، وهو آنذاك في مطلع شبابه الفوار ، يلوم المترجم ويقول في (خلاصة اليومية) ان البستاني اضاع أعواما في تعريب الالياذة لو قضاها او بعضا منها في نخبة من اسفار الحكمة الغربية لكان ذلك خيرا للعربية وقرائها من نقل كل ملاحم الاقدمين . ثم قال العقاد :

« نقل الينا تلك الملحمة الضخمة التي تشتم عنجهيات البدو وخلافات القبائل في كل قصيدة من قصائدها ، على حين بدا الاوربيون أنفسهم يمجونها ويزهدون فيها ... »

ولا يمكن أن نقر العقاد على هذا الرأى فالالياذة من عيون الادب العالمي التي نقلت الى أغلب اللغات فكانت العربية فقيرة اليها حتى سد البستاني الخلة ورأب الصدع. وقدكنا، نحن العرب ، نزهد في كتاب (الف ليلة وليلة) ونعده من الحكايات الباطلة البعيدة عن الادب حتى أقدم المستشرقون الغربيون على نقله الى لغاتهم والعناية بأصل قصصه وتحقيق مصادرها وتعيين أزمان تدوينها وبيان ما انطوت عليه من محاسن ادبية ، فاذا بنا نعود الى كنزنا المهمل فننقض عنه الغبار ونوسعه درسا وتمحيصا ، كما فعل أحمد حسن الزيات وانداده .

ذلك ما عن لي كتابته لدى صدور الجزء الاول من (المساعد) . واختم كلمتي مكررا ازجاء الشكر الى وزارة الاعلام واضفاء آيات التقدير على الصديقين المحققين الفاضلين كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي آملا ان تظهر بقية اجزاء المعجم في غد قريب .